



المقدمة

الفلسفة والدين



## الإنسان والمعرفة

منذ أن وعى الإنسان وجوده في هذه النشأة وهو في بحث دؤوب لا ينضب عن معرفة أسرارها. فالذهن الإنساني لم تمر عليه فترةٌ توقف فيها عن الكشف عن سبل تعمير هذه الأرض التي يعيش عليها وتأمين حاجاته الأساسية فيها من مسكن وملبس ومأكل ومشرب، بل وتعدّى ذلك إلى جوانب واسعة أخرى لعلّها لا تتعلّق تعلقاً مباشراً بحاجاته المعيشية ولكن لها الصلة الوثيقة بفضوله العلمي وتطلّعاته المعرفية. فغار في أعماق الظواهر الطبيعية على أنواعها التي من حوله من سماوات وما فيها، وأراضٍ وما في باطنها، وبحارٍ وما تضمّه في أعماقها، وكائناتٍ على صغرها، ولم يكتفِ بذلك بل قادته غريزة العلم إلى التساؤل عن خالقه الذي أوجده بعد أن لم يكن ما هو؟ وكيف هو؟ ومن هو؟ ومن أين أتى؟ ولماذا خلقه؟ والغاية التي يريد لها له؟ وإلى أين سينتهي به المطاف بعد الرحيل عن هذه النشأة؟ فهل سيظل باقياً في صورة من الصور؟ أم سيتلاشى حين تلاشي بدنه المادي؟ وفيما تكمن سعادته بعد حياته هذه؟ وكيف السبيل إلى ضمانها هناك؟ وماذا عن نفسه هذه التي بين جنبيه؟



فهل هي غير هذا البدن المادي؟ وفي هذه الحالة ما هي العلاقة التي تربطها به؟ وهل كانت في مكان ما قبل ارتباطها به أم لا؟ وإلى غير ذلك من الأسئلة التي لم يجد الغور في عمق الظواهر الماديّة واستخدام التجربة يقودانه إلى التوصل إلى أجوبة عنها. وهنا نشأت معضلة معرفة الأجوبة عن هذه التساؤلات وكيف السبيل إليها ثمّ ماذا سيكون الدليل على صدق ما توصل إليه واعتقد به من أجوبة لا سبيل للتجربة في إثباتها والتحقق من واقعيتها وإثباتها للحقيقة؟

### نزعة التفكير

إذن لم يكن للتفكير فيما وراء هذه النشأة من وقت ظهر فيه بل هو ملازم للإنسان منذ وجوده، إذ هو من مقتضيات جِلبته الأولى. فالسعي في سبيل الإحاطة العلميّة بالأشياء مغروس في أعماق النفس الإنسانية بيد موجدتها، فليس ثمّة سبيل لإزالته أو منع نموّه. وقد تضافرت الأدلّة المثبتة أن ذاك من ذاتياتها بحيث تصوّر انفكاكه عنها هو تصور انفكاكها عن ذاتها وإعدام لهويتها وعدم تحقق لوجودها فليس نشوؤه راجع - والحال هذه - لقهر عامل خارجي، لذا قيل أن الفلسفة - عند أولئك الذين يرون أن المعارف المتعلقة بما وراء هذه النشأة الماديّة أي الميتافيزيقية بالتعبير الحديث من مختصات الفلسفة، وأنّ التحقيق فيها تحقيق فلسفي - لا تاريخ لها<sup>(١)</sup>. كما أنّ هذا اللون من التفكير لم يكن من مختصات فئة دون

(١) محمد حسين الطباطبائي، أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، ترجمه إلى

العربية محمد عبد المنعم الخاقاني، الجزء ١، الصفحة ١٠.

أخرى، فليس المتعلم هو الذي تراوده رغبة في معرفتها دون الأمي، ولا أن رتبة معينة من الثقافة تؤدي إلى انبثاقها في الذهن دون غيرها.

وعلى أية حال فالأسئلة تلك على كثرتها لم تمنع الإنسان من تتبّع صراط أجوبتها. وما سمح الإنسان لمشكلة المعرفة أن تصبح عتمةً في سبيل مشاهدة لمعات أنوار الحق والواقع، فقد سجّل التاريخ في معركة الإنسان مع موانع معرفة ما وراء النشأة الماديّة أنماطًا من الاعتقادات التي لم تمت إلى الحق والواقع بصلة. وكان للوهم والتخيّل وتقليد الآباء الدور الأكبر في صياغتها. ولكن إلى جانب ذلك فقد سجّل التاريخ حضارات رائعة من التقدّم العقليّ والعمران المعرفيّ بناها الإنسان عبر مراحل مختلفة من صراعه العلمي، هذا وقد اهتدى إلى حلّ جذريّ لمشكلة المعرفة وكيفية إصابة الواقع، وذلك عندما اكتشف خزانة المعرفة اليقينيّة التي عنده فأصبح يعرض كل معرفة جديدة يكتسبها فيما تتعلق بما وراء المادة على يقينيّاته تلك وقيس صحّتها أو سقمها وفق مدى توافقها وتخالفها معها.

## الإسلام والمعرفة

ولم يفث التاريخ أن يذكر أن رسالات دينيّة شتى ظهرت في مختلف أزمنة الصراع البشري لمعرفة الغيب، لتساهم بقسط وفير في دفع جهود المعرفة إلى الأمام بما كانت تعرضه من معارف تتعلق بما وراء النشأة الدنيويّة، لا سيّما «رسالة الإسلام» التي عرضت كمًّا غفيرًا من المعارف المتعلقة بالمبدأ والمعاد، كما حثّت متبّعيها على التأمّل في الآفاق والأنفس بغية إصابة الحق، وأكثر من

الدعوة إلى التفكّر والتعقّل والتعلّم والتذكّر، وألقت لومًا كبيرًا على أولئك الذين لا تتجاوز معرفتهم ظاهر الحياة الماديّة التي يعيشونها، فكانّها بذلك تدعو دعوةً صريحةً لامتلاك رؤية علميّة شاملة عن الحياة يُبُعديها الماديّ والمعنويّ، أضف إلى ذلك ما توفّره شرائعه التبعديّة من الفرص العديدة لتحقيق الغاية العلميّة المذكورة، الأمر الذي يقف عليه المتأمل الدارس لمناهج هذه الرسالة بكلّ وضوح.

غير أن قومًا من المنتحلين بهذا الدين الإلهيّ العظيم منعوا النظر والتفكر في غير ظاهر هذه الحياة وأرادوا إخماد ذلك التوجه الفطري لمعرفة المبدأ والمعاد وكانت حجتهم في ذلك هي أن «الأنبياء أخبر الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله وعن بداية هذا العالم ومصيره وما يهجم عليه الإنسان بعد موته وآتوهم علم ذلك كلّه وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدّماتها التي ينون عليها بحثهم»<sup>(١)</sup>.

فالكلام المارّ يمنع التحقيق العقلي المحض في قضايا عرضها الكتاب العزيز وقد أقيم البرهان في محلّه على حقّانية الدعوة الإسلاميّة وأنها من الله سبحانه فلا يتبقى عذر يمنح مجالاً لطلب البراهين على المطالب المذكورة في الكتاب. وبموجب ذلك فالدين قد كفل مؤونة الاستدلال على صحة المطالب التي حملها للناس فلم يتبقّ وجه للسعي إلى نيلها. ولما كان أمر الفلسفة والتفلسف هو هذا أي «التفكير العقليّ الخالص» بغية إدراك المعارف المتعلقة بما وراء النشأة الماديّة، فالدين قد قوّض أركانها وكفى جهدها.

(١) أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، الصفحة ٩٧.

## الإسلام والفلسفة

وهنا ينشأ السؤال التالي: هل الدين فعلاً يمنع من التفكير العقلي الصرف المسمّى بالتحقيق الفلسفي؟ بعض المتأخرين من الباحثين يشير إلى أنه ليست للدين علاقة بالفلسفة يقول: «الفلسفة علم عقلي خالص وتبعاً لذلك لا تقبل أن توصف بوصف ديني»<sup>(١)</sup>. والبعض الآخر ذهب إلى أبعد من هذا إذ صوّر المسألة على مستوى القطيعة الإستيمولوجية من منطلق أن «مبدأ التسليم» الذي يؤمن به الدين يخالف تماماً «مبدأ التفكير والنقد والمناقشة» الذي تتبناه الفلسفة. وعلى هذا فهناك خلاف حادّ على مستوى المنهج بين الدين والفلسفة: «إن الخلاف بين الفلسفة والدين لم يكن في الأساس خلافاً في المحتوى أو المضمون بل كان خلافاً في المنهج، ويتلخّص هذا الخلاف في أن منهج التفكير الفلسفي منهج نقديّ في حين أن منهج التفكير الديني إيماني. إن الفلسفة تناقش المسلّمات كافةً ولا تعترف إلا بما يصمد لاختبار المنطق الدقيق. في حين أن مبدأ التسليم ذاته أساس في الإيمان الديني وأقصى غايات ذلك الإيمان هي أن يؤدي بالمرء إلى قبول المعتقد بلا مناقشة بل دون أن تطرأ عليه أصلاً فكرة المناقشة!!... الفيلسوف يريد أن يناقش كل شيء في حين أن رجل الدين حتى لو اعترف بمبدأ المناقشة لا يسمح بهذه المناقشة إلا في حدود معينة ويرفض أن تمتد حتى تشمل المعتقدات الأساسية!!»<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، الجزء ٢، الصفحة ٢٠٣.

(٢) فؤاد زكريا، مقالة بعنوان «الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر»، منشورة في ندوة عن الفلسفة في الوطن العربي المعاصر، الصفحة ٤٣.

وبموجب ما تقدم، لا يعود للدين من مجال ليلتقي بالفلسفة على بساط واحد. وفي مقابل هذا التصور هنالك تصور آخر نابع من دراسة شمولية لمنهج الدين ومنهج الفلسفة على حدّ سواء، لا أثر للارتجالية المتبدلة فيه مطلقاً، يطرح ما حاصله: «كيف يسوّغ للأنبياء أن يدعوا الناس إلى السمع والقبول بلا بيّنة وأن يطلبوا منهم السير على غير طريق الاستدلال وإقامة البرهان مع أن ذلك مخالف لجبلتهم ومنافٍ لما جهزوا به في أصل خلقتهم وبنية وجودهم. حاشا ساحة الأنبياء أن يحملوا الناس على أن يخبطوا خبط عشواء، وأن يسوقوهم سوق البهيمة العمياء. وها هو ذا القرآن أعدل شاهد على ذلك فيما يدعو إليه المجتمع الإنساني من معارف المبدأ والمعاد وكتيّات المعارف الإلهية، فهو لا يأخذ إلا عن حجة بيّنة ولا يدعو إلا عن حجة بيّنة ولا يمدح إلا العلم والاستقلال في الفهم ولا يذمّ إلا الجهل والتقليد قال تعالى ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾<sup>(١)</sup>. وخلاصة القول إن الدين لا يدعو الإنسان إلا إلى نيل الحقائق الإلهية بشعوره الاستدلالي الذي جهّز به وهذا هو بالذات ما يُعبّر عنه بالفلسفة الإلهية.

فكيف صحّ بعد هذا، الفصلُ بين الدين الإلهي والفلسفة الإلهية مع أنهما شيء واحد لا تعدد فيه ولا اختلاف؟ فلا قيمة إذن لما أصرّ عليه جمع من الأوروبيين واستحسنه آخرون من المسلمين من أن الدين يقابل الفلسفة. لا قيمة لأقاويلهم، ودع عنك أيضاً ما نهج به جمع من الباحثين المسلمين من أن الدين يرفض الفلسفة ويبطلها ولا ينسجم معها، وأن الموقف الديني هو غير الموقف

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٨.

الفلسفي وهدف هذا غير هدف ذاك. فدع عنك هذه الأقاويل وتيقن أن الدين لا يدعو إلا إلى الفلسفة الإلهية وهي الحصول على المعارف الإلهية عن حجة عقلية»<sup>(١)</sup>.

والذي نحن له واجدون أن الكتاب العزيز قد شحن بالآيات الحاكية عن الغيب وعن النشآت العريضة التي تقع وراء هذه الحياة المؤقتة وما فعل ذلك إلا لأجل هداية الإنسان للغاية المقدسة التي ينشدها في تشريعاته كلها، وليس لأجل إشباع ترفه الفكري. ثم إنه دعا إلى التدبر في آياته والتفكر في معارفه التي جلبها للإنسان وألح في طلبه هذا أيما إلحاح إذ في التفكر يمكن تيقنه بها ولا مشاحة في أن الاستدلال العقلي الصرف وجه من وجوه التفكير بل هو التفكير الخالص المستتبع لليقين.

### رسالة الفلسفة الإسلامية اليوم

تلك كانت وجهة النظر التي تتفق معها والتي على ضوءها سلك رؤاد التفكير الاستدلالي في الإسلام طريقهم نحو درك المعارف العالية فظفروا برؤية برهانية سليمة حول المبدأ والمعاد بعد جهود هائلة بذلت عبر قرون متواصلة، فيحق لنا القول بأننا - المسلمون - نملك أروع ببيان فلسفي شامخ في الإلهيات نستطيع وفقه إثبات عقائدنا بأسس منطقية وعقلية لا تتزلزل بل وتقديمها إلى العالم كله بهذه الصورة المحكمة، فمن وجهة نظرنا أن على المتخصصين من رجال هذا الفن العظيم:

(١) محمد حسين الطباطبائي، علي والفلسفة الإلهية، الصفحة ١١.

أ - تقديم هذه الرؤية الكونية الجبارة بأسلوب يتناسب مع الذوق اللغوي والثقافي للأجيال اليوم إذ من المؤسف حقاً «أن تظلم هذه الحكمة لأن قليلاً من الناس هم متعمقون فيها، ومن ناحية أخرى لأن الأعداء والمتعصّبين وقليلي الخبرة قد تصافرت جهودهم ضدها»<sup>(١)</sup>.

ب - تقديمها بشمولية وتوسّع كحلّ للأزمات العقلية التي عانت منها الثقافات الغربية لا سيما الأوروبية التي مع الظهور المكثف للفلاسفة فيها عجزت عن أن تظفر برؤية واقعية عن الكون والحياة بل كانت تكريساً للتخلّف العقلي التي منيت به أوروبا في القرن الثامن عشر. نعم يؤكد الباحثون عن الوضع الفلسفي لأوروبا اليوم أن الميتافيزيقيا قد عادت إلى الساحة مجدداً في صورة الفلسفة التوماوية أو الاسكولائية<sup>(٢)</sup>، وأن الدين بدأ يعود على أصابعه من جديد إليها بمعونة الاكتشافات العلمية الحديثة، وهذا من شأنه دفع المتخصصين لبذل جهد أكبر لعرض ما في الفلسفة الإسلامية من حلول لمشاكل ظلت غير محلولة في الفلسفة التوماوية والتي سيقف على تفصيلها القارئ في حينه إن شاء الله العزيز.

«إن أملنا أن يواصل العلماء المخلصون هذا السير التكاملي وينيروا بتلك الأضواء الثاقبة مناطق أخرى ما زالت مظلمة حتى الآن ويستنقذوا الكثيرين من الحيرة والتخبّط وبعون الله فإنه باتّساع الإمكانيات لعرض نظريات (الفلسفة الإسلامية) الأساسية

(١) مرتضى المطهري، العدل الإلهي، الصفحة ١١١.

(٢) بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوروبا، ترجمة عزت قرني، الصفحة ٣٧١.

وتوضيحها تفتح المحافل الفلسفية في العالم وتوفر الأرضية لسيطرة الثقافة الإسلامية على كل أرجاء العالم»<sup>(١)</sup>.

وها هنا ملاحظة مهمة هي أن الفشل الذي منيت به فلسفات أوروبا على اختلافها وكثرتها حول إصابة الواقع الخارج عن حدود المادة لا يتحمل مسؤوليته الطريق الاستدلالي وعجزه عن تحقيق مطلبه هناك، إذ هذا الطريق أساسًا لم يكن متبَعًا عندهم بالدرجة المطلوبة والصحيحة. وإن عوامل كثيرة أخطرها التمدن المادي في شتى الحقول كانت قد أَلقت ظلالها على البحث العقلي عندهم فجعلته تبعًا للمادة متعلق التحقق بطريق التجربة، مع أن البحث العقلي لا يمرّ عبر التجربة، وتفصيله في موضع أنسب من هذا إن شاء الله العزيز.

## هذا الكتاب

يسعى هذا الكتاب لتقديم تصور أولي وبالخطوط العريضة عن بعض جوانب ما اصطلح عليه «بالمشكلات العقلية الكبرى» وهي مشكلة المعرفة ومشكلة النفس ومشكلة الألوهية (مع ما في التعبير من تسامح) ومشكلة الطبيعة، حيث يعرض الآراء التي توصلت إليها الحضارات الفلسفية البشرية في مختلف مراحلها ابتداءً بالعهد الإغريقي الأول ومرورًا بالحضارة الإسكندرانية وآراء الفلاسفة الأوروبيين وانتهاءً بتحقيقات الفلاسفة المسلمين لا سيما الفيلسوف الإسلامي الكبير «صدر المتألهين محمد بن إبراهيم الشيرازي» آخر

(١) محمد تقي المصباح، المنهج الجديد لتعليم الفلسفة، الصفحة ١٣٨.

مجدّدي الفلسفة الإسلامية والرجل الذي تدين الفلسفة الإسلامية له بالشيء الكثير لما حقق لها من إنجازات لم يكن لأحد قصب السبق إليها والتي كان لها الأثر الأكبر في إعطائها هذا الرونق الذي تتمتع به اليوم.

«تدور معظم بحوث صدر المتألهين حول الفلسفة الأولى والحكمة الإلهية. وقد تمثّل صدر المتألهين بصورة رائعة في ما وصل إليه من آثار اليونانيين القدماء ولا سيما أفلاطون وأرسطو. واستطاع أيضاً هضم ما قدّمه الفارابي وأبو علي وشيخ الأشراف وغيرهم من تفسير أو إبداع واستوعب أيضاً ما أدركه العارفون العظام بوحى من أذواقهم وقوة عرفانهم ثم شاد أساساً جديداً على قواعد وأصول محكمة لا يتطرق إليها الخلل. وأخرج مسائل الفلسفة بشكل رياضي بواسطة البرهان والاستدلال بحيث تستنبط وتستخرج أحدها من الآخر. وبهذا أخرج الفلسفة من التبعضر والتشتت في طرق الاستدلال. وكانت فلسفة صدر المتألهين رائعةً وغير مسبوقه ولكنه أفاد من جهود المحققين الكبار الذين تقدموا عليه خلال ثمانية قرون والذين كان لكل منهم نصيب في تقدم الفلسفة وتطورها. وقد مرّت مع الأسف منذ ظهور هذه الفلسفة وحتى الآن أربعة قرون ولم تقدّم خلالها ولو إجمالاً إلى أوروبا. ويؤيد هذا الزعم المتخصصون بشؤون الشرق. يقول البروفسور إدوار براون المستشرق البريطاني المعروف: رغم انتشار فلسفة ملا صدر ورواجها لم أجد، لها أثراً على السنة الأوروبيين»<sup>(١)</sup>.

(١) محمد حسين الطباطبائي، أسس الفلسفة والمذهب الواقعي، مقدمة الكتاب لمرضى المطهري، الجزء ١، الصفحة ١٣.

ومما يؤسف له أيضًا أن الباحثين العرب ممن تحدثوا عن النهضة الفلسفية التي أقامها لا يكادوا يتجاوزون عدد أصابع اليد. ومع ذلك فهو كافٍ لكي لا يغيب ذكره وقت الحديث عن أعلام الفلسفة الإسلامية ومع ذلك فقد غاب أو تغيّب فعلاً، الأمر الذي يستوقف النظر حقاً. وعلى أية حال فلنغض الطرف عن هذا حالياً على أن نستأنفه لاحقاً. ويحلو لكاتب هذه الأوراق كثيراً أن ينتسب إلى أولئك الذين قدموا هذا الفيلسوف العظيم إلى المكتبة العربية وليجد القارئ العربي فكره الفلسفي الشامخ متاحاً للاطلاع عليه والتزوّد منه.

أما الغرض الذي يرمي إليه الكتاب فهو تعريف القارئ العربي بالتراث الفلسفي العظيم الذي نمتلكه نحن المسلمون والرؤية الكونية الشامخة المؤيدة بالبرهان عن عقائدنا التي جاء بها الكتاب العزيز، وحثنا على معرفتها معرفةً استدلاليةً لا ظنيةً أو تقليديةً. وبالمقابل العجز المهين الذي أصاب الفكر الأوروبي في محاولته لفهم المسائل المارة الذكر وأن دوراً عتيداً مرمياً على عاتقنا لفهم تراثنا العقلي العظيم هذا وتقديمه واضحاً سلساً في خط الدعوة إلى التوحيد. كما خاطبنا سبحانه وتعالى في الذكر المجيد: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة النحل، الآية ١٢٥.

(٢) سورة يوسف، الآية ١٠٨.